

73 - السيدة أم رعدة



بلاغتها ورشاد عقلها

أم رعدة واحدة من شواعر العرب المجيدات، ملكت ناصية البيان، وأوتيت فصاحةً في اللسان، كانت ذات ذكاءٍ نادرٍ، وبيانٍ ساحرٍ إذا تكلمت دخل كلامها القلوب قبل الآذان، دون حاجةٍ إلى استئذان، وشعرها مهيجٌ للمشاعر، وآسرٌ للخواطر، يحسبه السامع كأنه تغريد، فيهتف لها: هل من مزيد؟! .

وأحسب أن ذلك من رهافة الإحساس التي يتفاضل فيها الناس - وهو قَبْلُ - من فضل الله على عباده، ومِنَّة يُفيض بها على من يشاء من حكمته، القائل في كتابه المبين المنزل على نبيه المبعوث رحمةً للعالمين: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 269].

وقال أيضاً: ﴿كَلَّا نُمَدِّدْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20].

وقد وفدت أم رعدة على رسول الله ﷺ في نفرٍ من قومها، فلما دخلوا عليه بادرت أم رعدة بتحية رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، فقالت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليها رسول الله ﷺ السلام، ثم قالت: يا رسول الله، إنا ذوات الخدور، ومحل أزر البعول، ومنبتات الأولاد، ولا حظ⁽¹⁾ لنا في الجيش، فعلمنا شيئاً يقربنا إلى الله ﷻ، ويمنحنا الأجر والثواب.

(1) لا حظٌ لنا: أي لا نصيب لنا.

فلما سمع النبي ﷺ جميل كلامها، وحسن منطقها، وبراعة تحليلها، ردَّ عليها بقوله: «عَلَيْكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، وَغَضِّ الْبَصَرِ، وَخَفْضِ الصَّوْتِ».

إنها موعظةٌ حسنةٌ كسائر مواعظه ﷺ، فذكر الله أول الخير، وآخر الخير، وكلَّ الخير، والخير كله فيه، ومن ابتغى الخير في غيره فما هو بملاقه.

وأما غَضُّ البصر، ففيه كفٌّ للنفس عن الشهوات، وتطهير لها من الخطايا والموبقات، وتجنُّبها ركوب المحرِّمات، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: 30].

وأما خفض الصوت، فالله لا يريد مناداته بصوتٍ عالٍ، لأنه يسمع ديب النملة في باطن الأرض، وفي رؤوس الجبال، وخفض الصوت عند رسول الله ﷺ دليلٌ على التقوى، وموجبٌ للمغفرة والأجر العظيم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) [الحجرات: 2-3]، ومن ذا الذي لا يريد أن يُغفر له، وأن يكون من المتقين؟.

ورعها

ثم قالت أم رعدة؛ يا رسول الله، إني امرأةٌ مقينة، أقينُ النساء، وأزيئنهنَّ لأزواجهنَّ، فهل هو حوبٌ⁽¹⁾ فأبُط عنه؟ فقال: «يَا أُمَّ رَعْلَةَ قَيِّنِهِنَّ وَرَزِيْنِهِنَّ إِذَا كَسَدْنَ».

(1) الحوب: الإثم والذنب.

ولما توفي رسول الله ﷺ بكته بكاءً مرّاً، وأخذت تطوف المدينة باكية حزينة، وهي تقول:

يَا دَارَ فَاطِمَةَ الْمَغْمُورَ سَاحَتَهَا هَيَّجَتْ لِي حُزْنًا حُيِّتَ مِنْ دَارِ
فانقلبت المدينة إلى مأتم، ولم يبقَ فيها دارٌّ من دور الأنصار إلاَّ
وأصحابها في بكاءٍ ونحيبٍ لفقد أغلى حبيب.

رحم الله أم رعدة المؤمنة الوفيّة، وأحسن نزلها، ورضي عنها، وجعل
مقامها في دار الخلود مع المتقين الأبرار.

